الفصل الخامس

من عجائب لطف الله

١ - خمسة مشاهد رائعة:

المشهد الأول:

وقف رجل بين يدي الخليفة العباسي المأمون فقال له المأمون: والله لأقتلنك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تأنَّ عليَّ فإن الرفق يضعف العقوبة، قال: قد حلفت لأقتلنك، فقال: يا أمير المؤمنين لأن تلقى الله عز وجل حانثًا خير من أن تلقاه قاتلًا، فخلى المأمون سبيله[(١)].

فهذه كلمات نافعة كانت من عجيب لطف الله بهذا الرجل أنقذه الله بها من القتل فسبحان الحكيم العليم اللطيف الخبير.

المشهد الثاني:

قال إبراهيم بن أدهم عليه رحمة الله: كنت ضيفًا عند قوم فقدموا مائدة فنزل غراب واختطف رغيفًا وطار به قال: فتعجبت من حاله وتبعته فإذا برجل مقيد مأسور قد شدت يداه فألقى الغراب الرغيف عند وجهه وجعل الرجل يأكل منه[(٢)].

المشهد الثالث:

قال الإمام المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ: خرجت من مصر ومعي جاريتي فركبت البحر أريد مكة فغرقت بنا السفينة وذهبت مني ألف دينار، وصرت إلى جزيرة أنا وجارية لي فما

---

(١) «جنة الرضا» للغرناطي (٢/ ١٠١).

(2) «جنة الرضا» (١/ ٢٤٥).

رأينا في الجزيرة أحدًا، وأخذني العطش فلم أقدر على الماء، واجتهدت فلم أجد شيئًا، فوضعت خدي على فخذ جاريتي مستسلمًا للموت، فإذا رجل قد جاءني ومعه كوز فيه ماء وقال لي: هاك، فأخذت وشربت وسقيت الجارية، ثم مضى فلم أدر من أين جاء ولا من أين ذهب.

قال الغرناطي بعد إيراد هذه القصة، نفي هذه الحكاية من لطف الله ما يتعجب منه زيادة على النجاة من الغرق والخلاص من هول البحر فقيض الله لهذا المروزي ذلك الماء الذي أتاه به رجل لا يعرف من أين جاء ولا من أين ذهب، بعد استسلامه للموت من العطش وإشرافه على الهلاك من الظمأ فسبحان اللطيف بعباده القريب الذي هو أقرب لأحدنا من حبل وريده[1].

المشهد الرابع:

عن أبي عبد الله بن جعفر البرقي قال: رأيت امرأة بالبادية وقد جاء البرد فذهب بزرع كان لها، فجاء الناس يعزونها فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك التعويض عما تلف. فافعل بنا ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك وآمالنا مصروفة إليك، قال: فلم أبرح حتى جاء رجل من الأجلاء الأغنياء أهل البلد فحدث بما كان فوهب لها خمسمائة دينار[2].

---

(١) «جنة الرضا» (٢/ ١٨٥)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ١٠٩).

(2) «١٥٠ قصة» لمجدي السيد وقال: أخرجه البيهقي (١/ ١٨١).

المشهد الخامس:

قال مسروق بن الأجدع التابعي الثقة الإمام كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار يتقلون عليه الماء، ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا لذهاب الديك، وكان الرجل صالحًا فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم مكثوا ما شاء الله ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا لذهاب الحمار، فقال الرجل الصالح: عسى أن يكون خيرًا، ثم مكثوا ما شاء الله بعد ذلك، ثم أصيب الكلب فقال الرجل الصالح: عسى أن يكون خيرًا، ثم مكثوا بعد ذلك ما شاء الله فأصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم فكان الخير لهم هلاك تلك الحيوانات ليحفظوهم من عدوهم[1].

٢- إن المحامد جياع:

قال أبو العباس البكري: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير ومحمد بن خزيمة، ومحمد ابن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني وذلك بمصر فنفذ زادهم ولم يبق عندهم ما يسد رمقهم، وأضر بهم الجوع فاجتمعوا في منزل كانوا يأوون إليه فتشاوروا فيما هم فيه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القُرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على الإمام محمد بن خزيمة، فقال لأصحابه أمهلوني حتى أصلي، قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي

(١) «الرضا عن الله» لابن أبي الدنيا ورقم (٢٨)، «عيون الحكايات» لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

مصر يدق الباب، ففتحوا فقال لهم: أيكم محمد بن نصر، فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قال وأيكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، ثم قال: وأيكم الروياني وابن خزيمة؟ فأعطاهما خمسين دينارًا لكل منهما، ثم قال: إن الأمير كان نائمًا بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا أيامهم جياعًا، فأنفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إلي أحدكم[1].

٣- إسلام قبل الموت بلحظة:

سمعت أحد العلماء يقول: إن أحد الإخوة قد مرض مرضًا شديدًا فذهبوا به إلى المستشفى وبينما هم ينهون إجراءات الدخول، إذا برجل يأتي بأمه محمولة على سرير متحرك، وهي في حالة خطرة، فطلب منهم أن يهتموا بشأنها حتى يأتي بتذكرة دخول إلى المستشفى وذهب مسرعًا وتركها بالقرب منهم، وجعلوا ينظرون إليها فإذا هي في سكرات الموت، فقال أحدهم لها: قولي لا إله إلا الله فقالت: لا إله إلا الله ثم ماتت، ولما جاء ابنها ورأى أنها قد ماتت بدا عليه الحزن فقالوا له: أبشر فإنها نطقت الشهادة قبل أن تموت فقال: ماذا فعلتم؟! كفرتموها؟! بئس ما صنعتم!! وقد كانت المرأة نصرانية. فهذا لطف من الله يأتي بهذه المرأة قبل أن تفرق الحياة لتموت على الإسلام، فسبحان اللطيف الخبير!.

٤- كن كالغراب الصحيح:

قال ابن الجوزي عليه رَحِمَهُ اللَّهُ: التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي بمكة، فقال إبراهيم لشقيق ما بدء أمرك الذي بلغك هذا؟ فقال: سرت في بعض الفلوات فرأيت

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٧).

طائرًا مكسور الجناح في فلاة من الأرض فقلت: من أين رزقك هذا؟ فقعدت بحذاه، فإذا أنا بطائر قد أقبل وفي منقاره جرادة، فوضعها في منقار الطائر مكسور الجناح، فقلت لنفسي: يا نفس الذي قيض هذا الطائر الصحيح لهذا الطائر المكسور الجناحين في فلاة من الأرض هو قادر على أن يرزقني حيثما كنت، فتركت التكسب وانشغلت بالعبادة. فقال له إبراهيم: يا شقيق ولم لا تكون أنت الطائر الصحيح، الذي أطعم العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت أن النبي ﷺ يقول: اليد العليا خير من اليد السفلى[1]، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها، حتى يبلغ منازل الأبرار، قال: فأخذ يد إبراهيم فقبلها وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق[2].

قلت: قيض الله غرابًا صحيحًا ليحفظ الله به حياة غراب مكسور، وقيض إبراهيم بفهمه السديد ليحفظ الله به استقامة في سير شقيق وذلك من لطف الله بالعبد أن يقيض له من يقوم سبيل سيره إلى ربه عز وجل اللهم قيض لأمة الإسلام علماء ربانيين يأخذون بأيديها لتحكيم شرعك وإقامة سنة نبيك ﷺ.

٥- رضيع يعيش وحده بين الأنقاض:

ذكر الجاحظ وغيره هذه القصة وقال هو أمر مشهور عندنا بالبصرة أنه وقع طاعون جارف أتى على أهل البلد، ومات كثير من الخلق فعمد بعض الناس إلى باب دار فسدوه على من فيه، وكان قد بقي في البيت طفل صغير رضيع هم غفلوا عنه ولكن

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٩)، ومسلم برقم (١٠٣٣).

(2) «لسان الميزان» لابن حجر (٣/ ١٥١)، «عيون الحكايات» لابن الجوزي (٣٢٩).

الله يعلم حاله، ويرسل إليه من الرزق ما يحفظ به حياته، ولكن كيف يرسل الله إليه رزقه وهو في هذا المكان وحده وليس له قدرة على مضغ طعام ولا بحث عن غذاء؟! تأمل كيف يكون لطف الرحيم الكريم جل جلاله، لما لم يفطن الناس له، وبقي الطفل الرضيع مدة طويلة من الزمان بهذا المكان جاء بعض الورثة إلى البيت ففتح الباب فوجد الصبي يلعب ويحبو مع كلب صغير لأنه قد كانت هناك كلبه لأهل الدار أقبلت فأقبل الطفل إليها يحبو فأمكنته من نفسها حتى رضع منها، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى أن أولاد الكلبة يرتضعون منها حبا إليها فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب فمن علم هذا الحيوان البهيم أن يتفقد حياة طفل بهذه الطريقة؟ ومن الذي ألهم الطفل أن يتجه ليرتضع من هذا الحيوان؟! أليس هذا تدبير حكيم خبير؟![1].

قلت... ومن طريف ما ذكر وضع صياد حمامة في قفص فأخذت تغني فقال الصياد أهذا وقت غناء؟! فقالت: من ساعة على ساعة فرج.

٦- اعتصام بالله يأتي بالنجاة:

قال الإمام طاووس بن كيسان عليه رَحِمَهُ اللَّهُ: بينما أنا بمكة، إذ بعث إلي الحجاج فأجلسني إلى جنبه، وأتكأني على وسادة إذ سمع ملبيًا يلبي حول البيت رافعًا صوته، فقال علي بالرجل، فأتي به فقال له: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين قال: ليس عن الإسلام سألت، قال: فعم سألت؟، قال: سألتك عن البلد قال: من أهل اليمن قال:

---

(١) انظر: كتاب «ما قدروا الله حق قدره» للمصنف بتقديم الشيخ/ مصطفى العدوى والشيخ محمد يعقوب.

كيف تركت محمد بن يوسف؟ يريد أخاه محمد بن يوسف الثقفي قال: تركته عظيمًا، جسيمًا، لباسًا ركابًا خراجًا ولاجًا. قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت؟ قال: سألتك عن سيرته، قال: تركته ظلومًا، غشومًا مطيعًا للمخلوق عاصيًا للخالق.

قال الحجاج: ما حملك على أن تتكلم بهذا وأنت تعلم مكانه مني؟ قال الرجل: أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله عز وجل، وأنا وافد بيته، ومصدق نبيه وقائم بدينه؟! فسكت الحجاج، وقام الرجل من غير أن يؤذن له. قال طاووس: فقمت في أثره وقلت: الرجل حكيم فأتى البيت، فأتعلق بأستاره ثم قال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ.

اللهم اجعل لي في اللهف إلى جودك والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين، وغني عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم وعادتك الحسنة ثم ذهب في الناس، فرأيته عشية عرفة وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني الأجر على مصيبتي بتركك القبول مني، ثم ذهب في الناس فرأيته غداة جمع يقول: واسوءتاه منك وإن عفوت ويردد ذلك[1].

٧- رحم كلبًا فأعتقت رقبته:

قال صاحب «المختار من قرائن النقول والأخبار»: مر عمر بن معمر بزنجي يأكل عند حائط بستان وبين يديه كلب إذ أكل لقمة طرح له لقمة فقال له: أهذا الكلب كلبك؟ قال: لا، قال: فلم تطعمه مثل ما تأكل؟ قال: إني أستحي من ذي عينين ينظر

(١) «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» لابن الجوزي (٢/ ١٧)، «المغني عن مجالس السوء» (٢/ ١٦٥).

إليَّ أن أستيد بمأكول دونه، قال: أحر أنت أم عبد؟ قال: عبد لبعض بني عاصم فأتى عمر ناديهم فاشتراه واشترى الحائط (البستان) ثم جاءه فقال: أشعرت أن الله قد أعتقك؟ قال: الحمد لله وحده ثم لمن أعتني بعده. قال: وهذا الحائط لك، فقال: أشهدك أنه وقف على فقراء المدينة قال: ويحك تفعل هذا ما حاجتك؟ قال: إني أستحي من الله أن يجود لي بشيء فأبخل به عليه[1].

٨- لطف الله بالأسماك:

يقول الدكتور عبد المجيد الزنداني: من المعروف أن الماء إذا زادت درجة حرارته زاد حجمه وقلت كثافته فيرتفع الماء الساخن إلى أعلى وينزل الماء البارد إلى أسفل، وهذا هو الحال في جميع السوائل، إن الماء الساخن يعلو فوق الماء البارد، وعلى وفق هذه السنة الإلهية كان لابد أن يرتفع الماء الساخن وينخفض الثلج البارد في البحر المتجمد إلى القاع ثم يتراكم هذا الثلج بعضه فوق بعض حتى سطح البحر وحينئذ يصبح البحر قطعة واحدة من الثلج وبناء على ذلك تتجمد الأسماك وتموت كل الأحياء البحرية في المحيط المتجمد الشمالي ولكن الشاهد غير ذلك فالأسماك وكافة الحيوانات البحرية في هذا المحيط حية ترزق وتعيش بمنتهى الحرية وتتحرك وتسير أينما تريد كيف حدث ذلك؟

إن الخالق الرحيم جل وعلا قد عكس هذه القاعدة المعروفة في الماء في هذه الأماكن فصارت برودة الماء أعلى والماء الأكثر حرارة أسفل ولهذا تغطي بعض البحار الشمالية أو القطبية بطبقات من الثلج ولكن أعماقها تكون ماء سائلاً يسهل على

---

(١) «المغني عن مجالس السوء» (٣/ ١٤٣).

الأسماك والحيوانات أن تعيش فيه، فهذه سنة سنها الله تعالى في هذه الأماكن لتستمر فيها الحياة مهما كانت طبقات الثلج من أعلى[١].

٩- قاتل وقتيل يدخلان الجنة:

في الصحيحين واللفظ لمسلم أن النبي ﷺ قال: يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة، فقالوا كيف يا رسول الله؟ قال: يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل فيستشهد ثم يتوب الله على القاتل فيسلم، فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد»[٢]، ولفظ البخاري: يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما لآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد[٣]، قال الحافظ ابن حجر: قال ابن عبد البر: معنى هذا الحديث عند أهل العلم أن القاتل الأول كان كافرًا قلت: وهو الذي استنبطه البخاري في ترجمته ولكن لا مانع من أن يكون مسلمًا لعموم قوله ﷺ: ثم يتوب الله على القاتل، كما لو قتل مسلم مسلمًا عمدًا بلا شبهة ثم تاب القاتل واستشهد في سبيل الله[٤].

قلت: هل يضحك ربنا؟ إن علماءنا حفظهم الله ورحمهم قد علمونا حب العلماء واحترامهم وتوقيرهم وأن ذلك من شعائر الإسلام والدين، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ولولاهم يضل الناس إن كان علماؤنا قد علمونا ذلك وأكثر ولكنهم أيضًا علمونا أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وأنه لا عصمة لأحد قط بعد رسول الله ﷺ لذلك أسجل هنا أن إمامينا الفاضلين وعالمينا

(١) «توحيد الخالق» للدكتور عبد المجيد الزنداني (٢١/ ٣٧-٣٩) بتصرف.

(2) رواه مسلم برقم (١٨٩٠).

(3) رواه البخاري برقم (٢٨٢٦).

(4) «فتح الباري» (٦/ ٤٨).

الجليلين رحمهما الله رحمة واسعة الإمام النووي والإمام ابن حجر كلاهما رحمهما الله قد وقعا في هذا الحديث في تأويل صفة الضحك لربنا عز وجل، وهذا خلاف معتقد أهل السنة والجماعة وقد نقل الحافظ ابن حجر نفسه كلام ابن الجوزي فقال وقال ابن الجوزي: أكثر السلف يمتنعون من تأويل مثل هذا ويمرونه كما جاء، وعلق ابن باز عليه رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الكلمة لابن الجوزي بفتح الباري فقال: وهذا هو الصواب الذي جرت عليه الملة وعمل به أئمتها من العصر النبوي إلى زمن الأئمة المتبوعين والخروج عن هذه الطريقة إلى التأويل عدول عن طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان[1].

وقاعدة أهل السنة في أسماء الله الحسنى وصفاته هي: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تعطيل ولا تكييف ومن غير تمثيل أو تحريف، فصفة الضحك معناها معلوم ولكن كيفيتها بالنسبة لنا مجهولة، والإيمان بثبوتها لربنا جل جلاله واجب والسؤال عن كيفيته بدعة قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث في شرح العقيدة الواسطية: ففي هذا الحديث إثبات الضحك لله عز وجل وهو ضحك حقيقي لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين فهو ضحك يليق بجلاله وعظمته ولا يمكن أن بمثله لأننا لا يجوز أن نقول أن لله فمًا وأسنانًا وما أشبه ذلك لكي نثبت الضحك لله عز وجل على وجه يليق به سبحانه وتعالى، فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله مماثلًا للمخلوقين، فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلا للمخلوق لأن الذي قال: «يضحك» وهو الذي أنزل عليه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). ومن جهة أخرى فالنبي لا يتكلم في مثل هذا إلا

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٨)، وانظر الهامش حيث تعليق ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

عن وحي، لأنه من أمور الغيب ليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها رسول الله.

ثم يقره الله على ذلك أو لا يقره ولكنه من الأمور الغيبية التي يتلقاها رسول الله عن طريق الوحي ولو قال قائل: المراد بالضحك الرضا لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء سر به وضحك والمراد بالرضا الثواب أو إرادة الثواب كما قال ذلك أهل التعطيل، فالجواب أن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه فما الذي أدراكم ومن أين علمتم أن المراد بالضحك الرضا؟! فأنتم الآن قلتم على الله مالا تعلمون من وجهين:

الوجه الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

الوجه الثاني: أثبتم له معنى خلاف الظاهر بلا علم[1].

فوائد من الحديث:

في هذا الحديث جملة من الفوائد. منها:

١- إثبات صفة الضحك لله عز وجل على ما يليق بجلاله وكماله.

٢- أن التوبة تجب ما قبلها والإسلام يهدم ما قبله.

٣- سعة رحمة الله وعظيم لطفه وإمهاله للعصاة.

٤- مكانة الشهادة في سبيل الله عز وجل وعظيم فضلها وأن ثوابها الجنة نسأل الله أن يرزقنا قبل الموت توبة وعند الموت شهادة، وبعد الموت نعيمًا ورضوانًا.

٥- كل الذنوب يغفرها الله، ولا يتعاظم رحمة الله شيء فمهما أذنب العبد فرحمة الله أوسع وفضل الله أعظم.

---

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٢-٢٣) بتصرف يسير.

٦- فطر جريمة القتل فهي أبشع ذنب بعد الكفر بالله عز وجل.

١٠- هكذا تكون النجاة:

حدثني بعض الإخوة يصدق بعضهم بعضًا أن سيارة أجرة كانت على أهبة السفر،ولما اكتمل عدد الركاب فيها أرادوا التحرك فجاء رجل وقال لأحد الركاب خذني إلى جوارك قالوا: اركب في السيارة التالية قال: لا إني متعجل جدًا جدًا يا أخي خذني إلى جوارك؟! مالك لا تفعل فغضب هذا الراكب ونزل من السيارة وقال تفضل اركب أنت فركب وتحركت السيارة، وركب هذا الأخ في السيارة التالية لها قال: وفي منتصف الطريق وجدنا السيارات قد توقفت وإذا بصراخ وعويلو الناس يجرون هنا وهناك، فنزلنا لننظر فإذا بالسيارة التي كنت سأركب فيها، والتي نزلت منها قد وقع لها حادث مروع وتمزقت فيها الأشلاء بالدماء وإذا بالرجل الذي كان قد ركب مكاني قد مات، فقلت: سبحان الله كأنه كان متعجلًا إلى الآخرة، فسبحان الذي ينجي من شاء ليريه عجيب لطفه ورحمته وإمهاله له وكم في واقع الناس من مثل هذا كثير فسبحان اللطيف الخبير!!

١١- تشابه أسماء:

حدثني أحد من عاش أحداث هذه القصة فقال: اتهم شاب في قضية قتل خطأ وذلك لأن اسمه الرباعي يشابه اسم شاب آخر الرباعي، وبدأت التحقيقات والشاب ينكر أنه ما قتل هذا الشاب ويبكي ويصلي ويدعو الله عز وجل أن ينجيه وواصل الدعاء ليل نهار وسبحان الملك، كانت زوجة هذا المتهم مريضة في المستشفى وصار حال أهله كرب بعد كرب وأحاطت بهم الهموم و الغموم والأحزان، وصار صاحبنا يدعو ربه بالذل والتضرع والبكاء حتى كشف الله الكرب كيف ذلك؟ أصيب الشاب

القاتل الحقيقي الهارب في حادث فنقل إلى المستشفى وبينما أخو المتهم يدخل إلى المستشفى إذ سمع اسم هذا الشاب رباعيًا نفس اسم أخيه فتعجب، ونظر إليه ولما تأكد أن الاسم يتشابه رباعيًا مع اسم أخيه، قام على الفور بإبلاغ الشرطة، فقاموا بالتحفظ على هذا المصاب، حتى أفاق فسألوه أين كان أثناء الحادث، فجعل ينكر ولما نظر[1] إلى أصابعه قد قطعت في الحادث بكى، وقال هذا عقاب لي حيث قتلت نفسًا وستقتل نفس أخرى بسببي فهنا اعترف وقال أنا القاتل ولكني قتلت خطأ وحكي لهم حادثة القتل بالتفصيل فقاموا على الفور بالإفراج عن المتهم ظلما ونجاه الله وفرج كربه فسبحان من دبر له سبيل الحياة بعدما يئس منها، ولكنه لطف الله وحفظه، وإجابته لدعاء من دعاه، فهل يحل لك بعد ذلك أن تفقد الأمل في نصرة الله لك وحفظه لك، وتفريجه عنك كربك؟ لُذْ بالله والجأ إليه تجد الأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان، فوالله ليكشفن الله كربك إذا صدقت في اللجوء إليه، أنا أقسم وأعي ما أقول: فثق بربك فمقاليد كل شيء بيده.

١٢- ثمرة العفة:

ذكر الدمشقي في كتابه «مطالع البدور» عن أمير القاهرة في وقته شجاع الدين الشرزي قال: بينما أنا عند رجل بالصعيد وكان شيخًا كبيرًا شديد السمرة إذ حضر أولاد له بيض الوجوه حسان فسألناه عنهم فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية ولي معها قصة، فسألناه عن قصتها فقال: ذهبت إلى الشام وأنا شاب أثناء احتلال الصليبيين له، واستأجرت دكانًا أبيع فيه الكتان، فبينما أنا لي دكاني أتتني امرأة إفرنجية زوجة أحد

---

(١) يقصد المتهم زورًا الذي يشبه اسمه اسمه.

القادة الصليبيين فرأيت من جمالها ما سحرني، فبعتها وسامحتها في السعر ثم انصرفت وعادت بعد أيام فبعتها وسامحتها فأخذت تتردد علي وأنا انبسط معها، فعلمت أني أعشقها، فلما بلغ مني الأمر مبلغه قلت للعجوز التي معها: قد تعلقت نفسي بهذه المرأة فكيف السبيل إليها؟ فقالت: هذه زوجة فلان القائد ولو علم بنا قتلنا نحن الثلاثة فمازلت بها حتى طلبت مني خمسين دينارًا.

وتجيء بها إلى بيتي فاجتهدت حتى جمعت خمسين دينارًا وأعطيتها إياها. يقول: وانتظرتها تلك الليلة في الدار فلما جاءت إلي أكلنا وشربنا فلما مضى بعض الليل قلت في نفسي أما تستحي من الله ؟! وأنت غريب، وبين يدي الله تعصي الله مع نصرانية!! فرفعت بصري إلى السماء حياء وقلت: اللهم إني أشهدك إني عففت عن هذه النصرانية حياء منك وخوفًا من عقابك، ثم تنحيت عن موضعها إلى فراش آخر، فلما رأت ذلك قامت وهي غضبى ومضت: وفي الصباح مضيت إلى دكاني فلما كان الضحى مرت علي المرأة وهي غضبى والله كأن وجهها القمر، فلما رأيتها قلت في نفسي من أنت حتى تعف عن هذا الجمال؟ أنت أبو بكر أو عمر، أم أنت الجنيد العابد، أو الحسن الزاهد؟ وبقيت أتحسر عليها، فلما جاوزتني لحقت بالعجوز وقلت لها: ارجعي بها الليلة فقالت: ما تأتيك إلا بمائة دينار قلت: نعم فاجتهدت حتى جمعتها وأعطيتها إياها.

فلما كان الليل، انتظرتها في الدار، جاءت فكأنها القمر أقبل علي فلما جلست حضر خوفي من الله وقلت: كيف أعصيه مع نصرانية كافرة فتركتها خوفًا من الله، وفي الصباح مضيت إلى دكاني، وقلبي مشغول بها، فلما كان الضحى مرت علي المرأة وهي غضبى، فلما رأيتها لمت نفسي على تركها وبقيت أتحسر عليها فسألت العجوز فقالت: ما تفرح بها إلا بخمسمائة دينار، أو تموت كمدًا، قلت: نعم وعزمت على بيع دكاني

وبضاعتي وأعطيتها الخمسمائة دينار فبينما أنا كذلك إذ نادى منادي النصارى في السوق يقول: يا معشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم، قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من تجار المسلمين أسبوعًا، فجمعت ما بقي من متاعي وخرجت من الشام وفي قلبي من الحسرة ما فيه ثم أخذت أتاجر ببيع الجواري عسى أن يذهب ما بقلبي من حب تلك المرأة، فمضى على ذلك ثلاث سنين، ثم جرت وقعة حطين واستعاد المسلمون بلاد الساحل، وطلب مني جارية للملك الناصر وكان عندي جارية حسناء فاشتروها مني بمائة دينار فسلموني تسعين دينارًا وبقيت لي عشرة دنانير فقال الملك: امضوا به إلى البيت الذي فيه المسبيات من نساء الإفرنج ليختر منهن واحدة بالعشرة دنانير التي بقيت. فلما فتحوا لي الدار رأيت صاحبتي الإفرنجية فأخذتها، فلما مضيت إلى بيتي قلت لها: أما تعرفيني؟ قالت: لا قلت: أنا صاحبك التاجر الذي أخذت مني مائة وخمسين دينارا وقلت لي: لا تفرح بي إلا بخمسمائة دينار ها أنا أخذتك ملكًا بعشر دنانير ثم أسلمت وحسن إسلامها، فتزوجتها فلم تلبث أن أرسلت أمها إليها، بصندوق فلما فتحناه فإذا فيه الصرتان التي أعطيتها وثيابها التي كنت أراها فيها وهي أم هؤلاء الأولاد وهي التي طبخت لكم العشاء، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه[1].

قلت: لئن صحت هذه الواقعة فإن فيها بيانًا لعظيم ثمرة العفة عن الحرام وفي العفة لذة لا تدانيها لذة الوقوع في المعصية وإنما جر هذا الرجل إلى العشق وحب الفاحشة إطلاقه بصره للحرام، فمن غض بصره حفظ الله قلبه، ونوره وشرحه، ومن أطلق بصره تشتت عزم قلبه وخارت قواه الإيمانية وكانت الفتنة إليه أقرب واحتمال

(١) نقلًا من «إنها ملكة» للدكتور محمد العريفي (ص:٤٤-٤٦).

وقوعه في السوء أقوى فنعوذ بالله من الخذلان لذلك فإن أعظم علاج للفتنة اعتزالها والبعد عنها، والوقاية خير ألف مرة من العلاج فاللهم قنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

١٣- الخير هو ما اختاره ربك لك:

سمعت أحد العلماء يقول: إن رجلًا فقيرًا كانت مهنته وعمله في «مبولة» أي: حمام رجال، وعندما جاء ميعاد اختباره لكي يثبت في وظيفته ويتقاضى راتبًا حكوميًا شهريًا طلب منه شهادة محو أمية فذهب ليمتحن فما استطاع الحصول عليها بعد محاولات كثيرة، وعندما عجز هذا الفقير عن إحضار شهادة محو أمية عين رجل آخر مكانه، فحزن هذا الفقير وضجر وازداد فقره وألمه، وظل يدعو الله ويتضرع إليه بأن يوسع رزقه، وبعد مدة لم يجد عملًا وعجز عن الالتحاق بأي عمل وعندئذ فكر في أن يشتري بعض اللب والفول السوداني والحلوى وغير ذلك ثم يجلس يبيع منها في الشارع على لوح خشبي، وفعلًا نفذ ذلك لأنه لم يجد سبيلا لطلب الرزق غيره بدأ يتاجر في هذه الأشياء الضئيلة وجعل ربحه يزداد يومًا بعد يوم وجعل رزقه يكثر يومًا بعد يوم حتى جمع مالًا كثيرًا وأجَّر به محلًا، وفتح مقلاة وزاد ماله حتى صار مليونيرًا، صاحب سيارات وعمارات وصار ينفق من ماله على فقراء المسلمين فسبحان الله كم في تدبيره لعبده من خير، فسلم أمرك لربك وتوكل عليه وخذ بالأسباب وارض بما اختاره الله لك ففيه الخير العظيم لك في الدنيا والآخرة ما دمت مؤمنًا فلا تحزن على شيء فاتك من الدنيا قط تكفيك نعمة الإيمان وقربك من ربك عز وجل، اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الصادقين يارب.

وسمعت بعض الدعاة يقول: نظرت إلى أستاذ في الجامعة بعد صلاة الفجر وهو مطمئن القلب بالإيمان داعية إلى الله عز وجل فتذكرتُ قصته وكيف صار أستاذًا في الجامعة، إنه كان فقيرًا شديد الفقر ولما حصل على مجموع يؤهله لكلية من كليات القمة اشتد حزنه لأنه ليس من الممكن ان يلتحق بها والسبب أن مقرها في القاهرة وهو شديد الفقر لا يمكن أن يلتحق بها فالتحق بكلية أخرى هي أوفى وأقل فرسب فيها سنتين لتكدر خاطره وشدة غمه ثم لاحت له بارقة من أمل حيث إن كلية القمة التي كان يريد فتح لها فرعٌ في محافظته فهرول وسجَّل اسمه وعزم على أن يكون من الأوائل بها وأن يكون أستاذًا بالكلية لأن أول دفعه يؤخذ منها عدد كبير ليرشحوا معيدين بها وقبيل الامتحان بأيام مرض مرضًا شديدًا فكان من الراسبين فحزن حزنًا شديدًا ولكن كان من تدبير الله له أن أول دفعة في الكلية حدث بها غش في الامتحانات فقرر مجلس الجامعة إلغاء التعيينات منها ولو كان هو من هذه الدفعة لحرم من حلمه الذي يريد ثم هيَّأ الله له الاجتهاد والمثابرة حتى حصل على مجموع كبير وجاءت المفاجئة قرر مجلس الجامعة أن يختار من هذه الدفعة سنة وثلاثين من المتفوقين فكان هو أحدهم وصار بهذا معيدًا في الجامعة ثم أستاذًا في الجامعة فلو كان غنيًا لما تيَّسر له ذلك لأن فرع القاهرة لم يكن من اليسير أن يحقق حلمه ولو نجح في أول عام لما تيَّسر له ذلك فسبحان من هيأ له الأسباب وأعطاه ما أراد ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

وأختم بهذا المشهد الجديد

حدثني بعض ثقاة الأغنياء أن امرأة فقيرة جدًا بكي أولادها ليلة يريدون الطعام والعجب أنهم يشتهون لحم دجاج فاغتمت الأم بذلك ولم تدر ما تصنع يقول: فجاءت إليَّ في بيتي لتطلب كني مالًا أو دجاجة من الثلاجة فلما علمت أني نائم استحت

وانصرفت وبينما هي تمشي في الشارع تعرثلت قدمها وتعثرت فكادت أن تسقط فنظرت ما الذي عرقلها فوقعت عينها على ورقة فرفعتها فإذا هي عشرون جنيهًا فأخذتها وبحثت عن دكان للدجاج فوجدت دكانًا مفتوحًا فأسرعت إليه قبل أن يغلق بلحظات واشترت لأولادها دجاجة حتى أكلوا وشبعوا وفرج الله عنهم.

إخواني، كم من مغبوط بنعمه هي داؤه، وكم من محروم من دواء حرمانه شفاؤه، لو استخبر المنصف العقل والنقل لأخبراه أن الدنيا دار مصائب وشرور ليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بكدر فما نظنه في الدنيا أنه شراب هو في الحقيقة سراب، وعمارتها وإن حسنت خراب إنها على ذا وضعت لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية لا ينتظر الصحيح فيها إلا السقم والكبير إلا الهرم فثق ربك والجأ في أحوالك إليه وتوكل في كل الأمور عليه، وارض بما قسم الله لك واشكر نعمه يزدك.

الفصل السادس

الهداية من الضلال

من لطف الله بعبده أن يهديه إلى طاعته، وأن يلهمه ذكره ومحبته وأن يحول بينه وبين الفسوق والعصيان، فيحيي قلبه بالإيمان، وينقذه من ظلمات الغي وسكرات الغفلة ومهاوي الضلال ومواطن الشبهات والشهوات، فإذا وجدت في قلبك نورًا و هداية فاشكر الله وسله المزيد من فضله فالهداية تزداد بازدياد الإيمان قال ربنا في محكم آياته ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٧). وقال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف: ١٣).

وهذا أعظم نعيم في الوجود، وأخطر قضية في حياة الإنسان أن يهتدي إلى صراط الله المستقيم وعلى قدر الهداية يكون القرب من الله والتنعم بذكره وعبادته وتأمل جيدًا